١

رجل يحترق

كنت مسافراً، ولم يكن لى أدنى علاقة بهذا المجال على الإطلاق فى ذلك الوقت

أرنون ميلتشان فى برنامج ٦٠ دقيقة، ٥ مارس ٢٠٠٠

أرنون ميلتشان كان منفعلاً... منفعلاً للغاية، إذ تلقى مكالمة هاتفية فى شقته فى باريس من محرر فى جريدة نيوزويك يسأله فيها عن رد فعله تجاه الاتهام الصادم للدكتور ريتشارد كيلى سميث، رئيس شركة ميلكو ليميتد، وهى شركة تعمل كواجهة للاستخبارات الإسرائيلية، لشحنه أنابيب الكرايترون لإحدى شركات ميلتشان فى تل أبيب.

العلانية شيء يحاول أى عميل سرى تجنبه، وكان ميلتشان يبغضها بخاصة.

وفى الأيام التالية أفادت الصحف العالمية بأن أنابيب الكرايترون تستخدم كمفاتيح تشغيل متطورة لتفجير القنابل النووية. فى الواقع فأنابيب الكرايترون موجودة منذ أواخر الثلاثينات، لكن استخدامها هى وأشياء أخرى، كميكانيكية أولية لإطلاق الأسلحة النووية، لم يكن معروفاً لعامة الناس حتى ذلك اليوم بعينه فى مايو ١٩٨٥ .

وتنبأ المحللون الإعلاميون بتبعات حادة على العلاقات الأمريكية الإسرائيلية، ووفقاً لسميث فقد دفعت شركة ميلتشان إياه دفعاً لشراء أنابيب الكرايترون، وكان يعرف جيداً الغرض منها وأنها من المواد شديدة الحساسية والتى جمعها ميلتشان على مر السنين من أجل بلده.

وفى المجمل فقد طلبت شركة ميلتشان والمسماة هيلى تريدينغ ليميتد ٨١٠ أنبوبة

كرايترون، شحنها من سميث من دون الحصول على رخصة بتصدير الذخيرة التى تتطلبها وزارة الخارجية، وتدخلت إدارة الجمارك الأمريكية والمباحث الفيدرالية وتأزم الموقف. وأصبحت صفقة شركة ميلكو معرضة للخطر. وخشى ميلتشان من أن يلاحقه قضائياً المدعى العام الطموح سياسياً والمحب للظهور.

وبعد حديث قصير مع محرر مجلة نيوزويك، كان معظمه يدور فى فلك ادعاء الجهل بالأمر، حجز ميلتشان على أول رحلة جوية متجهة إلى تل أبيب، وخلال ساعات احتشدت فرق القنوات التليفزيونية والمصورون أمام البناية التى يملك فيها شقة علوية، وأخذ الهاتف يرن بشكل جنونى، ولم يلق ميلتشان بالاً لكل ذلك.

لكن كانت هناك مكالمة بعينها لم يستطع ميلتشان تجاهلها... تلك التى كانت من أمه شوشانا، والتى بعد أن استطاعت الوصول له أخيراً عبر الهاتف أجهشت بالبكاء

وقالت الجميع ينعتون ابنى بأنه تاجر سلاح، وهذا شيء محرج. حزن أرنون لهذا بشدة. إذ لم ير نفسه يوماً كتاجر سلاح، والآن أمه نفسها تتهمه بذلك صراحة.

"أمي! لا أحد يتهم بوينغ ولا روكويل بتجارة السلاح، ولا أحد يقول إن شركة رايثيون تتاجر فى السلاح. تلك هى نوعية الشركات التى أعمل معها. وليس الأمر وكأننى أشعل الحروب فى دول العالم الثالث وأشحن إليها الأسلحة. إنما أفعل هذا لمساعدة بلدنا على البقاء".

لم يمثل هذا عزاء للأم والتى لم يكن لها أى معرفة بمثل تلك الأمور، إنما كانت تعرف فقط أن عليها مواجهة نميمة الجيران، وعلى ذلك الصعيد فقد وقع الضرر بالفعل.

لم يهتم ميلتشان بذكر ذلك الأمر لمن يسوسونه فى وكالة لاكام، وهى وكالة شديدة السرية ضمن شبكة إسرائيل الاستخباراتية المعقدة وكانت معروفة للولايات المتحدة فى ذلك الوقت. وسرعان ما ارتدى حلة التمرين وغادر المبنى، على أمل ألا يتعرف عليه أى من الصحفيين. فالبرغم من كل شيء لم يكن شخصية مشهورة، ولم تكن له إلا صور قليلة متداولة، إن كان ثمة مثل تلك الصور على الإطلاق.

ونجحت خدعته، وخرج من المبنى، وأقبل عليه عدد هائل من الصحفيين من الواضح أنهم كانوا لا يعرفونه، لذا أخبرهم بأن السيد ميلتشان قد ذهب إلى مكتبه فى يافا فى الجهة الأخرى من المدينة. وتفرق الصحفيون فى مطاردة وهمية محمومة بينما ركب ميلتشان سيارته فى هدوء وقادها مباشرة إلى القدس لحضور اجتماع خاص مع صديقه الحميم ومعلمه، رئيس الوزراء الإسرائيلى آنذاك شمعون بيريز، وقاله له:

"شمعون، إنهم يتهموننى بأننى أفعل ذلك من أجل مكاسب شخصية. وأنت تعرف أننى لم أفعل ذلك لأجلى، بل فعلته لأجل الوطن. والآن أطلب مساعدتك".

وأنصت بيريز فى صمت ثم قال:

ماذا تتوقع أن يفعلوا يا أرنون؟ وماذا تريد منى أن أفعل؟

ورفع أرنون صوته بحدة لكن باحترام يائس:

لا أعرف يا شمعون! اتصل بريجان أو أىٌ من كان لإصلاح ذلك. لِمَ أكون أنا القربان؟

وساد صمت طويل، ثم أردف بيريز:

أرنون! ماذا تريد منى أن أفعل؟ أخرج علناً وأبين كيف اجتمعت برئيس الولايات المتحدة لاستغلالك فى جلب أشياء لإسرائيل لا يمكن جلبها عبر القنوات المعتادة؟!

واستمر أرنون فى توسله.

"كل ما أطلبه هو فعل شىء للخروج من هذه الأزمة".

تعاطف معه بيريز وشعر كأنه أب له، لكنه لم يعده بشىء:

"دعنى أفكر بعناية كيف أتعاطى مع هذا الموقف، وفى الوقت الحالى، أريدك أن تذهب إلى المنزل وتحاول الاسترخاء".

وكان بيريز يعرف جيداً أنه لا سبيل للاسترخاء بالنسبة لأرنون ميلتشان، وكان يعرف أنه من أكثر العملاء المبدعين والمنتجين ممن جندتهم الاستخبارات الإسرائيلية. وعلى مر السنين قدم له مديرو وكالة لاكام بدءاً من بنيامين بلامبيرغ إلى خلفه رافى إيتان قائمة طويلة من الأشياء شديدة الحساسية والمطلوبة لبرامج الدفاع العسكرى الإسرائيلى السرية، ومواد أخرى مستحيلة المنال متعلقة بالدفاع العسكرى، وعبر شبكة معقدة من شركات الواجهة فى أنحاء العالم، حصل أرنون على تلك الأشياء وبزٌ فى هذا الجميع.

وكانت مهمة ميلتشان هى توفير تلك الأشياء المطلوبة باللجوء إلى جميع الوسائل الضرورية: كل شيء كان مباحاً! وفى المقابل تعامله الحكومة كأمير وسط شعبه. كان يعمل فى مهام لأجلنا، ولذا إن واجه أية متاعب، شعرت أنه من واجبنا أن نساعده، هكذا قال شمعون بيريز.

لم تكن القواعد التى كانت تطبق على الآخرين تطبق على ميلتشان، ربما لم تكن تلك رخصة بالقتل تحديداً، لكنها أقرب ما تكون من ذلك. إذ فتح باسمه حسابات مصرفية سرية لدولة إسرائيل، حسابات استخدمت لتمويل أكثر العمليات الاستخباراتية الإسرائيلية سرية وخطورة فى كل أنحاء العالم. ثم راهن بثروته الشخصية المتزايدة عبر هوليوود وبعض أشهر الأفلام التى أُنتجت وأكثرها ربحاً، مما جعله أيقونة للثقافة الشعبية السينمائية وأحد أغنى الرجال فى العالم فى تلك الأثناء.

وعندما وصل إلى شقته بعد لقائه مع بيريز، رأى أيضاً أن عصبة الصحفيين قد عانت من المطاردة الوهمية المحمومة وكانوا مستائين. وعلى عكس ما نصحه به كل من حوله، وفقاً لما قالته إيتى كانر مساعدته الشخصية، وافق ميلتشان على دعوتهم لبيته فى مؤتمر صحفى وجيز، على أمل تهدئتهم، ومضى يشرح أنه لا علاقة له بصفقة الكرايترون ولا يعرف تفاصيلها.

لم يُعرف قط ما إن كان بيريز قد أجرى تلك المكالمة الهاتفية مع ريجان، لكن كان من الواضح أن إجراء آخر قد أنجز... إجراء كان الجزء الذى تم الكشف عنه كافياً لتغيير حياة الكثيرين.